الميـزات الرئيسـة في الفكر العسكري
لدى القائد (قتيبة بن مسلم الباهلي من سنة ٨٦-٩٦هـ)

سامر عياش عبد
كلية القانون - جامعة تكريت

بسـم الله الرحمن الرحيـم

المقدمة

كثيرة هي البحوث والدراسات التي اختصت في تاريخ العظماء من الرجال الاشداء ملوكاً وابطالاً وقادةً. جلُّها تكشف عن حوادثٍ ومآثرٍ ومناقبٍ منها الخافية ومنها الظاهرة وتودع بين ثناياها تجارب أناسٍ لو تأملتها لرأيتها متباينة في سرد احداثها وفي الوصول الى الغرض متبعةً اسلوب العرض والسرد القصصي بين باحثٍ مطولٍ واخر مقل مختصر، وبين هذا وذاك سنحاول ان نجد لانفسنا فسحة من الزمن نقف فيها عند قائد عربي عظيم هو(قتيبة بن مسلم الباهلي) [١]، إذ لطالما ورد في الروايات ذكره ومنهم من أوفاه حقه ومنهم من غبنه، وفي كلا الحالتين لا يخفى علينا ان الانسان بطبيعته يحب البقاء ويؤثر ان يكون في زمرة المخلدين في التاريخ ، لكن هناك فرقاً بين ما سمعناه بالامس وبين ما نقرؤه اليوم في الكتب التي تطوي أخبار الماضيين، ولكننا بوقفتنا هذه سنذكر بمآثر(قتيبة) ونتفق مع من وضعه في مكانه الامثل الرفيع الذي يليق بقائد سياسي واداري وعسكري أثبت نجاحه الذي تمخض عن انتصاراته المتتالية، لذا جاء بحثنا الموسوم(الميزات الرئيسة في الفكر العسكري لدى القائد قتيبة بن مسلم ٨٦هـ – ٩٦هـ)، مستندين الى فترة حياته العسكرية اثناء فترة ولايته على (خراسان) وبلاد ما وراء النهر والتي شهدت حركة فتوحات كبيرة اتسمت بالجدية العالية وتصاعد زخمها ونتائجها الباهرة والتي تكللت بالفكر العسكري الراسخ الذي اسهم بشكل فاعل في نسج الاحداث التاريخية الخالدة ووقائعها الخطيرة فأنطوت تحت جناح هذه الدراسة ثلاثة مطالب:–

تتحدث عن السمات الشخصية للقائد الناجح، من خلال اعداد الخطط العسكرية لاحراز النصر، واختيار التوقيتات المناسبة للهجوم على العدو، واقفين عند قيادته المتميزة للجند وتحريره للبلدان بأقل الخسائر من خلال ضبطه العسكري وامتثاله للأوامر. اما المطلب الثاني ، فجاء بالسمات القيادية العسكرية والتي تمثلت بالقدرة المتميزة على تفعيل روح الجماعة بين جنده، والقدرة على رفع الروح المعنوية، واعلاء كلمة الله والتضحية في سبيله، وبقدرته على مواجهة التحديات وحل المعضلات. وخلصنا من هذين المطلبين الى مطلب ثالث مختتمين البحث بحادثه مقتله والتي لم تكن تليق بقائد كنا نتوسم بشخصية كل معاني البطوله والقيادة والسياسة المثلى التي قادته الى الهلاك، فهو يستحق بحق ما قال به (الفرزدق) راثياً ذلك الوالي المهيب، بقوله:-

أتاني ورحلي بالمدينة وقعة لآل تميم أقعدت كل قائم
كأن رؤوس الناس اذ سمعوا بها مدمغة من هازمات أمائم[٢]

المطلب الاول

السمات الشخصية التي أهلت القائد (قتيبة بن مسلم الباهلي)

كان النظام الاداري للدولة العربية الاسلامية يسير وفق سياقات ادارية محددة، اذ كان الخليفة المشرف الاول على كل المفاصل الادارية والرئيسة في الدولة الاسلامية ، ويقع على عاتقه اختيار امراء للأقاليم والمدن، ممن يتوسم بهم الكفاءة والقدرة واطاعة الاوامر والتوجيهات[٣].

ومن هنا جاء تولية (قتيبة) ففي سنة(٨٦هـ)قدم لخراسان اميراً عليها من (الحجاج بن يوسف الثقفي)، فعرض الجند وخطب بهم و حثهم على الجهاد[٤] ، فكانت نقطة البداية في ولايته اذ بدأها بالحماس واذكاء الروح القتالية في نفوس المسلمين، لاعلاء راية الاسلام، فسار الى (أخرون) و (شومان) وهما من (طخارستان)[٥]، فصالحه ملكها على فدية اداها اليه، فقبلها (قتيبة) ثم غادرها الى(مرو) وإستخلف على الجند اخاه(صالح بن مسلم)[٦] وبعد رجوع (قتيبة) فتح(صالح) ثلاث مدن هي (كاشان واورشت واخشيكت) وهي من (فرغانه) [٧].

أ- اعداد الخطط العسكرية

من اهم وابرز الصفات القيادية التي يتحلى بها القائد الناجح هي قدرته وحذقته في اعداد الخطط العسكرية لاحراز النصر باقصر وقت واقل جهد وبأقل ما يمكن من الخسائر، والتي تبدأ قبل كل شيء باستطلاع المنطقة وجمع المعلومات الاستخباراتية عن العدو وتهيأة الجند عدداً وعدة، ومن ثم اعداد ووضع الخطة قبل الهجوم على العدو.

وقبل توليه امر القيادة قام (قتيبة) باستطلاع المنطقة وجمع المعلومات عن (خراسان) سنة (٨٥هـ) وعرض الجند [٨].

ثم غزا (قتيبة) بلاد الترك سنة(٨٧هـ) وعرض عليه الصلح (نيزك خان) ملكهم مقابل اعطاء الجزية واطلاق سراح الاسرى من المسلمين، فنزل على (بيكند) وهي تابعة الى (بخارى) فاستنجد الاتراك باهل(الصغد) ومن حولهم من الاتراك، فلبوا ندائهم بجمع غفير، فاغلقوا المنافذ قرابة شهرين ولم يتمكن ان يبعث برسول اليهم ولم يستقبل رسول. وانقطعت اخباره عن (الحجاج) حتى خاف عليه واشفق على من معه من المسلمين من كثرة الاعداء من الترك، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك الى المدن والقتال قائم، وكان (لقتيبة) عين من العجم يقال له(تندر) فأغروه بالمال على ان يخذله، فجاء اليه وقال : له اعتقني فعتقه، ثم امر بضرب عنقه، فاستنهض همم الجند على الحرب ووقف على اصحاب الراياة يحرضهم، فحمى الوطيس والهم الله المسلمين الصبر ولم يصلوا النهار، حتى انزل الله عليهم النصر، فهزم الترك هزيمة نكراء وكسرت شوكتهم، فقتل منهم من قتل واسر من أسر واعتصم من بقي منهم في المدينة، فأمر (قتيبة) بهدم المدينة، فطلبوا منه الصلح على مال عظيم فصالحهم، ثم ولى رجلاً مع طائفة من الجيش عليهم واقفل راجعاً ، فنقضوا العهد بعده وقتلوا الامير وقطعوا انوف من كان معه[٩].

وبذلك يكون القائد (قتيبة) قد استند الى، قوله تعالى((وإن جنَحوا للسّلم فأجنح لها وتوكّل على الله إنهُ هو السميع العليمُ))[١٠] فماذا لو كان من طالب بالصلح ناقضين للعهد ناكثين للميثاق فغدروا بصحبة من المسلمين ، فلم يتركوا له خياراً سوى السيف.

فرجع اليهم وحاصر المدينة شهراً ، وامر (الفعله) باضرام النار في سورها – الخشب – فسقط السور، فقتل من (الفعله) اربعين رجلاً، فسألوه الصلح فأبى، ولم يغادرها حتى افتتحها، فغنم اموالهم، فكتب الى (الحجاج) يسأله ان يعطي الغنائم للجند، فوافقه وزاد المسلمون قوة وباتوا اشد بأساً على الكفار من الامس([11]). ومن ذلك خلصنا الى ان اعداده للخطط العسكرية مسبقاً يقوده للتحرك في الوقت المناسب والمكان المناسب والتصرف وفق الية مدروسة لا تشوبها شائبة .

ب– اختيار التوقيتات المناسبة للهجوم على العدو

لم تكن وضع الخطط العسكرية محل اهتمام قائدنا(قتيبة) فحسب، بل تراه متنبهاً متحمساً للاختيار الوقت المناسب في هجومه على الخصم، وذلك إن دل على شيء فهو يدل على سعة ادراك ودراية ودربة في ادارة المعارك. ولا يسعنا هنا الا ان نذكر ((حادثة فتح (سمر قند) سنة (٩٣هـ) عندما اصدر امره لأخيه (عبد الرحمن) فسار في الفرسان والرماة الى (مرو) فسار يومه ، فلما امسى كتب اليه(قتيبة) اذا اصبحت فوجة الاتقال الى (مرو) وسر بالفرسان والرماة نحو(الصغد) واكتم الاخبار، فأني في الاثر))([12])، ففعل (عبد الرحمن) ما امر به ، ثم سار(قتيبة) الى (الصغد) فوصلها قبل (عبد الرحمن) بثلاث ايام ، وقدم معه اهل(بخارى، وخوارزم) فقاتلوه شهراً وهم محاصرون وخاف اهل (الصغد) طول الحصار وكان في انفسهم شيء من الرهبة والخوف من العرب، فطلبوا النجدة من ملك(الشلش وخاقان واخشاد فرغانه)، وأمروهم ان يأتوا عسكر(قتيبة) فيبيوتوه، فانه مشغول بحصار(سمر قند) ، فساروا، وبلغ(قتيبة) الخبر فانتخب من عسكره اربع مائة وقيل ستمائه من اهل الخبرة والشجاعة فوصلهم الخبر ، وامرهم بالمسير الى العدو ، فساروا بقيادة (صالح بن مسلم) ونزلوا على فرسخين من العسكر على الطريق، فجعل له كمينين، فجاء العدو وقدحت الشرارة الاولى برؤيتهم صالحاً، فاقتتلوا وعزز قوة الكمينين، فذعر العدو وما ان انجلى الضياء الاول من اليوم التالي حتى هزموا شر هزيمة، وغنم المسلمون ما غنموا من الخيول والاسلحة والذهب وعدد كبير من الاسرى([13]).

كان اختبار (قتيبة) للوقت المناسب في قيادة هجماته على عدوه ادعى الى ان تقوده سريعا الى طريق النصر وان تأخذه بعد كل حرب وبسرعة الى بر الامان، فهو يستحق ان يقف امامه الشاعر(نهار بن توسعه) باجلال واكبار، ليقول له:-

وما كان مذ كنا ولا كان قبله ولا هو فيما بعدنا كإبن مسلمِ

أعم لأهل الشرك قتلاً بسيف وأكثر فينا مقسماً بعد مقسمِ([14]).

ج- الضبط العسكري وإمتثاله للأوامر

لكي نصل بالبحث الى الميزات الرئيسة التي ميزت (قتيبة) عن غيره من القادة السياسين والعسكريين، كان لزاماً علينا ان نقف عند امور عده منها: مدى امتثاله للاوامر والتوجيهات التي كان يتلقاها من الخليفة فكانت اول اسباب نجاحه يذكر انه قد كتب الى (الحجاج) يستأذنه في فتح(جرجان) لكن (الحجاج) رفض ذلك ودعاه الى التوجه الى غيرها في رسالة جاء فيها((إن اياك والتورط فيما لا طاقة لك به من جرجان، عليك بغيرها))([15]) فتراه اعرض عن فتح (جرجان) وهذا ما يدل على التزامه بدقة بكل ما يؤمر به، مما عزز مكانته عند (الحجاج) وكسب ثقته، فراح- الاخير- يمنحه صلاحية التعيين والعزل على بعض المناطق والثغور، مما زاد من عمق التوافق بينهما، حيث بعث اليه (الحجاج) برسالة يأمره بعزل صاحب شرطته (وكيع بن حسان)([16]) ، بعد ان ثبتت عليه مؤشرات مخلة بالثقة والامانة، اذ قال: له ((..فإن وكيع بن حسان كان بالبصرة ما كان، ثم صار لصاً بسجستان، ثم صار الى خراسان، فاذا اتاك كتابي هذا فأهدم داره واحلل لوائه))([17]) فأمتثل (قتيبة) لأمر (الحجاج) وعزله([18]).

وحتى بعد وفاة (الحجاج) سنة ٩٥هـ ([19])، كان (قتيبة) غازياً في الشاش([20]) ، فلما علم بوفاته رجع الى مرو([21]) فتلقى من الخليفة (الوليد بن عبد الملك) رسالة دعاه فيها الى مواصلة الجهاد مؤكداً حفظ مكانته، كان نصها((وقد عرف امير المؤمنين بلائك وجدك في جهاد الاعداء وامير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذي يجب لك، فألم مغازيك وانظر ثواب ربك...))([22]).

المطلب الثاني
السمات القيادية العسكرية

قد تولد مع الفرد احياناً روحاً قيادية بالفطره ممكن بالخبره المكتسبة والتمرس تكبر للتأصل بالنفس، وعكس ذلك قد تكون روحاً منقاده وراء من تتلمس فيه القوة والغلبة...وقائدنا (قتيبة) كان من الصنف الاول اذ باتت السمة القيادية متأصلة في تكوينه النفسي فصقلت شخصيته وخلقت منها قائدنا له الأولوية في التميز والابداع وسعة الادراك وبعد النظر الثقة الكاملة بالنفس في اتخاذ القرارات الحاسمة.

أ- القدرة على رفع الروح المعنوية بين جنده

لكل قائد ناجح ميزات تميزه من غيره من القاده، اذ كان الالتفات الى شد اواصر الالفة بينه وبين الجند انفسهم من جهة وبين الجند انفسهم من جهه اخرى... شغله الشاغل، والعمل على تفعيل روح الجماعة داخل صفوفه العسكرية، اذ استخدم (قتيبة) اسلوباً جديداً في ترغيب القادة العسكريين بالحرب وتشجيعهم على الجهاد، وهو اطلاق ايدهم في التصرف بأموال الغائم لتأمين مستلزماتهم من رجال وسلاح ومؤن، لما لذلك من ابعاد في رفع الروح المعنوية للجند([٢٣]).

وراح ابعد من ذلك، فكان اذا اشتدت المعركة وحمي الوطيس تراه يتصدر الجند ليعزز في انفسهم القضية العادلة التي يحاربون من اجلها. ونذكر هنا في فتح (سمر قند) في سنة(٩٣هـ)حين التقى الجمعان((يذكر بعضهم: إنا لنقاتلهم اذا رأيت تحت الليل قتيبة وقد جاء سراً، فضرب ضربة اعجتني فقلت: كيف ترى بأمي وأبي؟ قال: اسكت فض الله فاك، قال: فقاتلناهم فلم يفلت منهم إلاّ الشريد))([٢٤]).

وهذا بحد ذاته يشكل دعماً حقيقياً لأن حضور اي قائد في ساحة المعركة يساعده على كشف امور عدة ، وهكذا كان (قتيبة) ومن تلك الامور علمه بكيفية سيرورة الاوضاع بالمعركة ومدى ظراوتها وحاجتها الماسة لحضوره بين صفوف المقاتلين كي ترجح على يده كفة االنصر، كذلك معالجة اي حادث طاريء باصدار الاوامر والتوجيهات السديدة للخروج من المعركة باقل الخسائر([٢٥]).

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يرفع الروح المعنوية للمقاتلين فيعزز ثقتهم بأنفسهم وبقائدهم ودفعهم الى مواصلة القتال بروح عالية([٢٦]).

وبطبيعة الحال فان المقاتل المتميز الذي يبدي شجاعة فائقة لا يسع قائده الا مكافأته، وهذا (قتيبة) يقول معبراً عن اكرامه لهم: ((جزاكم الله من قوم خيراً فلقد جاهدتم فأحسنتم الجهاد وابليتم فأحسنتم البلاء))([٢٧]) كان توزيع قطعاته العسكرية قبل الهجوم على العدو حسب ما مخطط له، اذ((كان يجعل الطلائع فرسان الناس واشرفهم ومعهم من العجم من يستنصحه ، واذا بعث امر بلوح فنقش، ثم شقه بنصفين وجعل شقه عنده، ويعطي نصفه الطليعه، ويأمرهم أن يدفنوه في موضع يصفه لهم من شجرة او مخاضة او غيرهما))([٢٨])، فبدا واضحاً ان حضوره الدائم في المعارك كان له الدور البارز في حسم كل المعارك لصالحه والحاق الهزيمة بالعدو.

ب- تجسيد روح التضحية في سبيل الله

ان ايمان القائد بعدالة القضية التي يحارب من اجلها تعد من العوامل المؤثرة والفعالة في حسم المعارك وتحقيق النصر المنشود. فكان القائد(قتيبة) وجنده يؤمنون ايماناً راسخاً بانهم على حق في قتالهم، مما مكنهم من احراز النصر الحاسم([٢٩]) .

فبعد فتح (سمر قند) سنة ٩٣هـ ، امر ببناء مسجداً ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدى ويخرج، وبعد ان تم الصلح أخليت المدينة من المقاتلين ، ثم ارسل الى (الصغد) من ارد منكم ان يؤخذ متاعه فليأخذه ، فاني لست خارجاً منها ولست اخذاً منكم الا ما صالحتكم عليه ([٣٠]).

وكان مما جسد اعلائه لمباديء الاسلام، انه امر بحرق الاصنام، فجاءه (غوزك) ، فقال: انصحك ان لا تتعرض لهذه الاصنام ، فان منها اصناماً من احرقها هلك، فقال (قتيبة) : انا احرقها بيدي، فدعا بالنار وكبرّ، ثم اشعلها فاحترقت، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين الف مثقال([٣١]).

ونذكر للتاريخ، لم يكن (قتيبة) غازياً،بل كان فاتحا، لانه اتبع منهج الاسلام بالفتح وتمسك بدين الله بشدة، مجسداً مباديء الاسلام مع اهل البلاد المفتوحة، التي نشر فيها العدالة وتركهم احراراً والالتزام بالعهود التي قطعها لهم في حالتي السلم والحرب وحفظ اموالهم العامة والخاصة.

ج- قدرته على مواجهة التحديات وحل المعضلات

لم يكن (قتيبة) قائداً عسكرياً فحسب، بل كان سياسياً محنكاً له القدرة على مواجهة اصعب المواقف والنفاذ منها بيسر. فاتسعت دائرة فتوحاته الاسلامية وذاع صيته بين الامصار وصولاً الى (الصين)، ويذكر بهذا الصدد ان (الحجاج) اراد ان يذكي روح المنافسة الجهادية بين قائدين هما(قتيبة بن مسلم) و (محمد بن قاسم الثقفي) فكتب اليهما برسالة يقول فيها:((ايكما سبق الى الصين فهو عامل عليها، وعلى صاحبها))([٣٢]) اذا خلقت هذه الرسالة التحدي الكامل في نفس (قتيبة) ، سنة (٩٦هـ)بعث جيشاً مع (كثير) الى (كاشغر) فغنم وسبى سبياً، فختم اعناقهم واوغل حتى بلغ قريب (الصين)، فكتب اليه ملك (الصين): ان ابعث لي رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم، فانتخب (قتيبة) عشرة لهم جمال والسن وبأس وعقل وصلاح، فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن، فقال لهم اذا دخلتم عليه فاعلموه اني قد حلفت اني لا انصرف حتى اطأ بلادهم، وأختم ملوكهم واجبي خراجهم([٣٣]). ولم تكن المسألة بالهينة كون (الصين) تمتاز باتساع رقعتها الجغرافية وكثرة نفوسها واتساع نفوذها ايضاً، مما خلق ذلك شيء من التحدي في نفس القائد (قتيبة). فسار وفده وعليهم (هبيرة) فدعاهم ملك الصين فلبسوا الثياب البيض وتحتها الغلائل وتطيبوا ودخلوا عليه ومعه عظماء قومه، فجلسوا ولم يكلمهم احد، وعندما نهضوا سأل ملك (الصين) لمن حضره عن رأيهم بهؤلاء؟ فقالوا((راينا قوماً ما هم إلاّنساء... وفي اليوم الثاني دعاهم، فلبسوا الوشي والعمائم والمطارف وغدوا عليه، فلما دخلوا قيل له:- ارجعوا، وقال لاصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه اشبه بهيئة الرجال من تلك، فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر، واخذو السيوف والرماح وركبوا ، فنظر اليهم ملك (الصين) فرأى امثال الجبال مقبلة ... فسأل اصحابه كيف ترونهم؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء)) ([٣٤]) ،ولم تكن هذه الخطة عفوية او

عشوائية او حتى وليدة لحظتها، بل كانت موضوعه مسبقاً ومدروسة من قبل (قتيبة)، وكانت غايته زعزعة نفوسهم، فجاءت ردة الفعل بعد ان رأوهم مقبلين مشمرين حاملين رماحهم يتطاردون بخيولهم باستعراض مهيب .((فما ان حل المساء حتى طلب زعيمهم فجاءه (هبيرة بن مشمرج) فقال: له قد رأيتم عظم ملكي وانه ليس احد يمنعكم مني، وانتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي، واني سائلكم عن امر فان لم تصدقوني قتلتكم، قال : سل ، قال لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثاني والثالث ما صنعتم؟ قال: اما زينا اليوم الاول فلباسنا في اهلنا، واما اليوم الثاني فزينا اذا أممنا امراءنا واما الثالث فزينا لعدونا، قال ما احسن ما دبرتم دهركم، فقولوا لصاحبكم ينصرف، فاني قد عرفت قلة اصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم ، قالوا :كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيلة في بلادك واخرها في منابت الزيتون؟ واما تخويفك ايانا بالقتل، فان لنا اجالاً اذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافهه، وقد حلف ان لا ينصرف حتى يطأ ارضكم، ويختم ملوككم، وتعطوا الجزية)) ([٣٥])، كان ينمُ هذا الحوار عن تحدّ واضح لملك عظيم، فلم يترك خيار لملك (الصين) الا الاستسلام فقال: ((فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب ارضنا فيطؤه، ونبعث اليه ببعض ابنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها، فنبعث اليه بهدية واربعة غلمان من ابناء ملوكهم، ثم اجازهم فأحسن، فقدموا على (قتيبة)، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم، ووطىء التراب))([٣٦]).

وكما دونتّ لنا كتب التاريخ هذه الاحداث، فقد دونها لنا الشعراء ايضاً، فلم تمر حادثة عظيمة كهذه الا تعرض لها الادباء بالذكر والتخليد فهذا الشاعر(سوادة بن عبد الملك السلولي)، يقول : في وفد (قتيبة) الذي بعثه الى (الصين):-

لا عيب في الوفد الذي بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهجِ
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هبيرة بن مشمرجِ
أدى رسالتك التي إستدعيتهُ فاتاك من حنث اليمين بمخرجِ([٣٧])

المطلب الثالث

حادثة مقتل قتيبة بن مسلم

لو بحثنا عن سبب قتله ، لوجدنا : ان الوليد بن عبد الملك بن مروان اراد ان ينزع اخاه سليمان من ولاية العهد ويجعل بدله ابنه عبد العزيز ، لكن موت الوليد سارع بتولية سليمان فخافه (قتيبة) ([٣٨]).

وخاف ان يولي سليمان يزيد بن المهلب على خراسان فيخلعهُ ، فكتب اليه – الى سليمان – يهنأه بالخلافة ويذكره بمآثره وطاعته لعبد الملك والوليد ، ويجدد له العهد شريطة ان لايعزله عن (خراسان) ، وراح يخبره بعظم قدره عند ملوك العجم وعظم صولته فيهم ، ويذم اهل المهلب ، ويحلف بالله لئن ولى يزيد على (خراسان) ليعملنّ على خلعه، وقدم رسول (قتيبة) ومعه الكتب الثلاث فقدمها الى (سليمان) وعنده يزيد بن المهلب ، فقرأها واحداً تلو الاخر والقاها الى يزيد ، وعندما فرغ من قراءة الاخير تغير لونه ، فقد قيل كان في الكتاب الثالث : لئن لم تقرني علي ماكنت عليه وتؤمنني لأخلعنك، ولأملأنها عليك رجالاً وخيلاً .([٣٩])

وعاد رسول (قتيبة) ومعه رسولاً من (سليمان) ليعطيه عهد (خراسان) ، وما أن وصلا الى (حلوان) حتى جاءهم خبر خلع قتيبة ، ولم يدرك (قتيبة)أنه بهذا العمل قد ((زل زلة كان فيها حتفه وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت المنية اليه ، وفارق الجماعة فمات ميتةً جاهلية)) ([٤٠]).

ولايسعنا القول هنا الا ان (لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة) ، اذ لم تكن خطوة (قتيبة) هذه محسوبة او مدروسة كسابقاتها ، ، فاجتمع بالناس ودعاهم الى خلع (سليمان) وذكرهم بأثره فيهم وسوء أثر من تقدمه .... فلم يحبه أحد ، فغضب وقال : ((لا أعز الله من نصرتم ! ثم والله لو اجتمعتم على عنزٍ ما كسرتم قرنها ، يا أهل السافله، ولا أقول ياأهل العالية ، أوباش الصدقة جمعتكم كما تجمع ابل الصدقة من كل أوب ، يامعشر بكر بن وائل ! ياأهل النفخ والكذب والبخل ! بأي يومكم نفحرون ؟ بيوم حربكم ، أو بيوم سلمكم ، ياصحاب مسيلمة ؟ يابني ذميم ولا أقول تميم ! يا أهل الجور والقصف ، كنتم تسيمون الغدر في الجاهلية كيسان ! يا أصحاب سجاج ! يا معشر عبد القيس الفساة ... يا كناسة المصريين ،

جمعتكم من منابت الشيح والقصيوم ومنابت الفلفل ، تركبون البقر والحمر ... أما والله اني لأبن أبيه ، وأخو أخيه والله لا أغضبكم غضب السلم ! ... يا أهل خراسان تغدرون من وليكم؟...))([41]).

وبسكوتهم هذا أثاروا حفيضته ، فنزل بهم شتماً وذما طائفة طائفة وقبيلة قبيلة ، غضَبَ فغضب الناس وكرهوا خلع (سليمان) وعملوا على مخالفة (قتيبة) ، بل وأجمعوا على خلعه وسعوا في قتله، وما كان ان يقع اختيارهم إلا على (وكيع بن أبي سود التميمي) بدلا عنهُ كونه يطلب(قتيبة) برياسته. ووصله الخبر ، واجتمع اهل بيته وخواص اصحابه وثقاته ليتباحثوا بالامر ، فخرج (قتيبة) ينادي : أذكركم الله والرحمن ، فأجابه : (محقر بن جزء العلائي) – وهو قيسي ايضا – وكان قد جفاهم : أنت قطعتها ، فتخلى عنه – بنو عمر – وجفوه ، فأشتد ألمه وقال : –

يانفس صبراً على ما كان من ألم اذا لم أجد لفضول العيش أقرانا ([42])

فجمع (وكيع) جموعا كثيرة وبدأ يعد العدة لقتله ومن معه فبعث (قتيبة) اخاه (صالحاً) الى الناس ، فرماهُ رجل من بني صفة فاصاب راسه فحمل الى (قتيبة)([43]) فوضعهُ في مصلاه وجلس عنده ساعة وتهايج الناس، واقبل (عبد الرحمن) اخو (قتيبة) نحوهم فرماه اهل السوق والغوغاء فقتلوه، واقتربوا من بيته فقاتل عنه ، رجل من بأهله فقال لهُ (قتيبة): انج بنفسك، فقال: بئس ما جازيتك اذاً وقد اطعمتني والبستني ودخل الناس عليه وجرحوه جراحات كثيرة،فنزل (سعد) فحز رأسه([44]) . وبذلك تم (لوكيع) ما اراد في ذي الحجة من السنة ٩٦هـ وقتل معه احد عشر رجلاً من اخوته وابنائه وابناء اخوته في داره (بفرغانه) من اقصى بلاد (خرسان) ([45]) ،ولم ينج منهم الا (ضرار بن مسلم)، وكانت امه (الغراء بنت ضرار بن القعقاع) فحمته عند اخواله .

واخذ (وكيع) الرؤوس – ورؤوس (قتيبة) ومن معه من اهله– الى (سليمان) فأمر بدفنها ([46]). فكانت بئس النهاية اذ لا تليق بسيد من سادات القوم وقائد من القادة النجباء من ذوي الغزوات والفتوحات وتألم على رحيله هذا كثيرون ورثوه شعراء كثيرون كان اولهم(عبد الرحمن بن جمانه الباهلي) حين قال:–

كأن ابا حفص قتيبة لم يسر بجيش الى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والجيش حوله وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً
دعته المنايا فاستجاب لربه وراح الجنات عفواً مطهراً
فما رزىءً الاسلام بعد محمد بمثل ابي حفص فبكيه عبهراً[٤٧]

الخـــاتمة

وبعد هذه الوقفة المتأنية في تاريخ القائد (قتيبة) العسكري والسياسي والاداري المتمثلة من سنة(٨٦– ٩٦هـ) تعد فترة مضيئة في تاريخ (خرسان)، ذلك التاريخ الذي طرزه (قتيبة) بأحرف من نور، لما له من مآثر عسكرية خالدة وفي منطقة هي الاكثر صعوبات من غيرها، فخلص البحث الى جملة من الحقائق التاريخية ، والتي يمكن اجمال اهمها بالشكل التالي:–

*– ميزت شخصيته سمات اهلته للقيادة كانت تتمُ عن سعة ادراك وبراعة عسكرية في تنظيم وتعبئة الجيش، حيث كان تنظيمه بناءً على ظروف المعركة.

*– شجاعته النادرة في اتخاذ القرارات الصائبة وفي اصعب الظروف وأحرجها.

*– كما تمتع بقوة شخصيته والتي لم تكن عسكرية فحسب بل كانت انسانية وادارية وسياسية، بناء على ما تحمله هذه الشخصية من مقومات القائد المتمكن .

*– وقفنا عند اعداده للخطط العسكرية والتي كان حريص على انجازها باقصر وقت واقل جهد وباقل ما يمكن من الخسائر، فلم تكن تفته صغيرة ولا كبيرة ولا شاردة ولا واردة لأنه كان يهدف من وراء تخطيطه المدروس الى النصر.

*– ومن ضمن تخطيطاته كان لزاماً علينا ان نذكر دعوته الى التعئبة في الهجوم وذلك بان يجعل خيرة فرسانه في المقدمة لرفع الروح المعنوية للجند.

*– ولم يغفل البحث عن التوقيتات المناسبة للهجوم على العدو، لما لذلك من اهمية بالغة في تأمين المباغتة.

*- ولم يحز على لقب القائد الناجح لو لا ضبطه العسكري وامتثاله للأوامر، إذ كان يلتزم بكل ما يصدر من توجيهات من السلطة الاعلى وهي سلطة الخليفة وهذا ان دل على شيء انما يدل على رجاحة عقله واستيعاب للموقف.

*- كما وقف البحث عند السمات القيادية العسكرية ايضاً والتي ميزت (قتيبة) عن غيره من القادة، وكان من اهمها قدرته المتميزة على تفعيل روح الجماعة بين جنده، باعتقاده ان القوة تبدأ من الفرد وصولاً الى الجماعة وهذا سر من اسرار نجاحه.

*- وجاءت السمة القيادية الاخرى وهي قدرته على مواجهة التحديات وحل المعضلات، فلو لم تكن لديه عقلية متميزة وشجاعة نادرة لما استطاع ان يحسم المواقف الصعبة والتي قاده حلها الى الابداع في قيادة المعارك.

*- جاءت فتوحاته منظمه، تمخض عنها دور بارز وفعّال له، اذ كان سجلاً حافلاً بالبطولات يفخر بها العرب.

*- الانتصارات المتوالية التي حققها لم تأت من محض صدفه او من فراغ بل جاءت من ايمان راسخ بعدالة التصفية التي يقاتل من اجلها، الا وهي رفع راية الاسلام عالياً واحلال السلام، لذا جاء وقوفنا عند (روح التضحية في سبيل الله) مبني على اساس متين وهو الدعوة الى تقوى الله وجعلها في مقدمة التوجيهات عن لقاء العدو، لان التقوى اهم عوامل النصر الرئيسة للمسلمين، ((ومن يتّق الله يجعلَ لهّ مخرجًا)) (٤٨).

هوامش البحث:

١-هو قتيبة بن مسلم بن عمر بن حصين أسيد الباهلي ، كان امير خراسان في زمن (الحجاج بن يوسف الثقفي) وهو احد قادة الفتح المشهورين ، قتل في خلافة سليمان بن عبد الملك، المعارف، ابن قتيبة: ٢٢٩– ٢٣٠، وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٢/٨٦–٨٧.

٢ – ديوان الفرزدق: ٦٦٥.

٣ – ينظر– الاحكام السلطانية، الماوردي: ٥١، وما بعدها.

٤ – ينظر – البداية والنهاية لابن كثير: ٩/٧٥.

٥– (طخارستان) هي ولاية واسعة كبيرة تشمل عدة بلاد وهي من نواحي(طخارستان) معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٤/٢٣.

٦ – ينظر – تاريخ الطبري: ٦/٤٢٥.

٧ – ينظر– الكامل في التاريخ :٤/١٨٠، وينظر– البداية والنهاية :٩/٧٥.

٨ – ينظر – المصدر نفسه: ٤/١٨٠.

٩ – ينظر– المصدر نفسه: ٩/ ٧٥.

١٠ – الانفال: ٦١.

١١ – ينظر– البداية والنهاية : ٩/٧٦.

١٢ – الكامل في التاريخ : ٤/٢٢١.

١٣ – المصدر نفسه : ٤/ ٢٢١– ٢٢٢.

١٤ – ينظر– المصر نفسه: ٤/٢٢٤.

١٥ – الفتوح، ابن اعثم، مج: ٤/٢١٢.

١٦ – هو وكيع بن حسان بن قيس بن ابي اسود بن غدانه يربوع التميمي، كان سيد بني تميم في سجستان، وهو الذي قتل(قتيبة) لما خرج على سليمان بن عبد الملك، ينظر– المعارف ، ابن (قتيبة)، ٢٣٥، والعقد الفريد– ابن عبد ربه : ٣/٢٦٧، الفتوح – ابن اعتم، مج٤/ ١٩٨–٢٠٤.

١٧ – ينظر – العقد الفريد: ١/٣٨.

١٨ – ينظر– المعارف : ٢٣٥، العقد الفريد : ٣٨/١.
١٩ – البداية والنهاية : ٩/ ١١٧.
٢٠ – (الشاش) مدينة تابعة(سمر قند) ، ومن الثغور التي تقع في ناحية الترك، ينظر– معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٣٠٨/٣.
٢١ – (مرو) مركز اقليم خراسان واشهر مدنه، ينظر– معجم البلدان: ٥/ ١١٢.
٢٢ – تاريخ الرسل والملوك، الطبري : ٦/ ٤٩٢– ٤٩٣.
٢٣ – ينظر– البداية والنهاية : ج ٩/ ٧٦.
٢٤ – الكامل في التاريخ : ٢٢٢/٤.
٢٥ – ينظر– تاريخ الرسل والملوك : ٦/ ٤٧٨.
٢٦ – ينظر– الفتوح، ابن اعثم : ٧/ ٢٤١.
٢٧ – تاريخ الرسل والملوك : ٦/ ٥٠١– ٥٠٣.
٢٨ – المصدر نفسه: ٧/ ٢٤١.
٢٩ – راجع– الفتوح : ٧/ ٢٤٢.
٣٠ – راجع– الكامل في التاريخ: ٢٢٢– ٢٢٣.
٣١ – ينظر– المصدر نفسه : ٢٢٣.
٣٢ – تاريخ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب: ٢٨٩/٢.
٣٣ – الكامل في التاريخ : ٢٣٩/٤.
٣٤ – المصدر نفسه: ٢٣٩/٤– ٢٤٠.
٣٥ – المصدر نفسه: ٢٤٠/٤.
٣٦ – المصدر نفسه: ٢٤٠/٤.
٣٧ – راجع– الكامل في التاريخ: ٢٤٠/٤.
٣٨ – المصدر نفسه : ٤/ ٢٤٤
٣٩ – ينظر– البداية والنهاية: ٩/ ١٧٠ ، الفتوح ١٨٧/٧
٤٠ – ينظر– الكامل في التاريخ، مج : ٢٤٤– ٢٤٥.

٤١ – المصدر نفسه : ٤/٢٤٥-٢٤٦.

٤٢ ينظر– البداية والنهاية ٩/١٧٠، والكامل في التاريخ: ٤/٢٤٧– ٢٤٨.

٤٣ – ينظر– الكامل في التاريخ : ٤/٢٤٧.

٤٤ – المصدر نفسه : ٤/٢٤٨.

٤٥- مات قتيبة وله من العمر ثمان واربعون سنة، كانت ولايته على (خراسان) عشر سنين، راجع – البداية والنهاية :٩/١٧١.

٤٦ – ينظر– الكامل في التاريخ : ٤/٢٤٨.

٤٧– (عبهر) الممتليء الجسم والعظيم الطويل من كل شيء– راجع– اللسان، عبهر، وعبهر اراد بها ام ولد له: ينظر– الكامل : ٤/٢٤٩، البداية والنهاية : ٩/ ١٧١.

٤٨ – الطلاق : ٢.

قائمة المصادر والمراجع

١– القران الكريم.

٢– الاحكام السلطانية والولايات الدينية، الماوردي، بغداد، ١٩٨٩م.

٣– البداية والنهاية ، اسماعيل بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، مكتبة الايمان، المنصورة، مصر.

٤– تاريخ الرسل والملوك، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠– ٩٢٢م) ن تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، د.ت.

٥– تاريخ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر واضح الاخباري، (ت ٢٨٤هـ – ٩٨٧م) دار صادر ، بيروت، د.ت.

٦– التعريفات، ابو الحسن بن محمد الجرجاني، بغداد، د.ت.

٧– ديوان الفرزدق، شرحه وضبط نصوصه وقدم له ، د. عمر فاروق الطبّاع، ط١، بيروت– لبنان، دار الارقم للنشر عام .١٩٩٧

٨- العقد الفريد ، ابن عبد ربة الاندلسي(ت ٣٢٨هـ ٩٤٠م) ، تحقيق : محمد سعيد العريان، دار الفكر، د.ت.
٩- الفتوح، ابو محمد بن احمد بن اعثم (ت ٣١٤هـ - ٩٢٦م)، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
١٠- الكامل في التاريخ، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد الشيباني(ت ٥٥٥- ٦٣٠هـ).
١١- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
١٢- مجلة المعجم العلمي العراقي، بحث بعنوان (يزيد بن المهلب الازدي) بقلم: خطاب بن محمود شيت، مج ٣٧، ج٤، ١٩٨٦م.
١٣- المعارف، ابن قتيبة ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
١٤- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
١٥- النظم الاسلامية، شحاتة الناظور واخرون، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد – الاردن، ١٩٨٨م.
١٦- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق : احسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٨م.